الفصل الأول

الإسلام الإنقلابى .. وإستيراتيجياته التفكيكية

مدخل: الأديان بين التقليد والحداثة

طالما أعتبر التاريخ الثقافى أن الأديان، على تنوعها، تنتمى الى العالم الكلاسيكى السابق على الحداثة، تلك التجربة/ الطفرة التى لم يبلغها التاريخ الإنسانى إلا على أشلاء الرؤية التقليدية للوجود وفى قلبها الأديان التى تصير آنذاك هى النقيض المنطقى للروح الحديثة، وذلك إذا ما فهمنا الجوهر الفلسفى للحداثة باعتباره ذلك التحول الجذرى فى رؤية الذات الإنسانية لنفسها ولموقعها فى الوجود ولقدرتها على السيطرة على مصيرها، وإنعتاقها من كل الأفكار ذات الطابع الأسطورى أو الميتافيزيقى التى طالما أسرتها وأعاقت قدرتها على النمو الذاتى وعلى التحرر، خاصة تلك الأفكار التى إدعت بالحق الإلهى المقدس فى حكم الشعوب ما كان كفيلا بإلغاء كل قيمة عقلانية، وموضوعية، ينتجها أو يراكمها التاريخ البشرى ما يحول بينه وبين فكرة التقدم. ولكن هل كانت كل الأديان قيدا على حرية الإرادة الإنسانية، وهل كان ذلك محتما بالضرورة، أو مطلقا يتجاوز الزمان والمكان؟. ثمة إجابات شتى تطرحها الأديان السماوية، يرتبط كل منها بدرجة نضوج العقل البشرى فى التاريخ ؛

فاليهودية مثلا وهى الأقدم، تعكس قصورا فى قدرة الوعى الانسانى عن إدراك حقيقة موقعه فى الوجود، وذلك لأنها تقصر أساسا عن فهم وإدراك صورة الإله "يهوه" ومن ثم تفشل فى إنجاز صيغة فعالة ومتسامية لعلاقته بالبشر.

فالرغبة فى التجسيد تبقى بمثابة توق لم يتوقف لحظة عند بنى إسرائيل اللذين لم يتوانوا عن إستحضار صور الآلهه لدى الشعوب الوثنية التى جاورتهم ليلبسوها جوهر يهوه. وقد صاحبتهم هذه الرغبة منذ الوهلة الأولى، حتى وهم لا يزالون فى لحظة الإنبثاق كجماعة مؤمنة تلقت لتوها النصر العظيم على الفرعون القوى المارق والغارق مع جنوده فى عرض البحر. فبينما كان موسى عليه السلام لا يزال يتلقى ألواح الشريعة، كانوا يشرعون فى عبادة العجل حنينا الى التجسيد الذى ألفه عقلهم المحدود، وحسهم المادى؟.

كما أن "يهوه" مشدود دوما الى الفلك الإنسانى، ليس من موقعه العلى المتسامى، ولكن من داخل هذا الفلك البشرى وعلاقاته وشروطه. فهو يحمل كثيرا من صفات البشر إذ يمكن تخيله كما يمكن تحديده بل والدخول معه فى صراع، إذ يحكى سفر التكوين كيف أن يعقوب قد تمكن فى هذا الصراع من الإيقاع بالرب وكسر ساقه، وبذلك حصل منه على الوعد بالملك والإختيار، أى بملكية الأرض المقدسة، وتتويج الشعب اليهودى كـ "شعب الله المختار".

هذه الخيرية إذ تعطى للإنسان، ولمجرد أنه ولد يهوديا، وقبل أن يكتمل وعيه، أو يعمل إرادته على النحو الذى يبرر إكتسابه لتلك الخيرية، فإنها تنفى القدرة الخلاقة والإيجابية لحرية الإرادة الإنسانية إذ تعفيها من تحمل مسئولياتها. فالخيرية السابقة على الفعل تحرم الإرادة من حضورها الأخلاقى فى التاريخ، لأنها تنفى أى قيمة موضوعية لهذا الحضور الذى يبدو مكملا وعرضيا، على هامش المسار التاريخى وغاياته التى تحددت سلفا، قبل حضور الإنسان وبغض النظر عن تصوراته، أو أفعاله، ومن ثم فلا معنى هنا لحرية الإرادة.

وفى **المسيحية**، نجد صورة نقيضة لدور الإنسان وموقعه فى الوجود قياسا الى اليهودية. فحضور المسيحى فى التاريخ أكثر ضعفا وذبولا، لأنه لم يأتى اليه مختارا، بل محملا بالخطيئة الأصلية/الأولى، ولا يوجد طريق أو طريقة لإستعادة حيويته فى هذا العالم عبر إعمال إرادته الحرة مهما كانت قوية، أو إيمانه الفردى/ الروحى مهما كان عميقا، فلابد من تدخل قوة خارجه عنه تحمل عنه الوزر وتمنحه الشفاعة وتأتيه بالخلاص. وهو لأجل ذلك يخضع لسلطان الكنيسة التى تبقى واسطته الى السماء، كما يتقبل عقيدتها الرسمية التى تذهب الى تأليه عيسى المسيح عليه السلام كأحد الأقانيم الثلاث الأساسية "الأب، والإبن، والروح القدس" التى تمتزج معا فى ذات "الإله الأعظم" الخالد فى السماء، حيث التداخل المعقد بين الإله والإنسان فى صورة "السيد الإلهى" الذى ينبثق عن أصل أو روح "الهى" ولكنه ينزل الى الأرض ليحيا بين البشر حياتهم ويتعذب مثلهم ثم يموت كما يموتون قبل أن يبعث مجدداً فى صورة إلهية ليكون شفيعا لهؤلاء البشر، الذين جرب هو آلامهم، لدى الإله الأعظم فيكون بعثه مقدمة لدينونتهم، وتكون نجاته بعد الموت نجاة لهم من الهلاك والألم المحيطين بهم طالما ظلوا مؤمنين به، ومجسدين لحياته على الأرض بينهم، إذ يستطيعون

عبر الطقوس والعبادات "التعميد، والقربان، والعشاء المقدس" الإندماج فيه تمهيداً لحلوله فيهم دما ولحماً.

ومن ثم فحرية الإرادة لدى المسيحى تحبسها أقنعة شتى، أولها سلطان الكنيسة الذى لا مرد له، فالكنيسة هى وكيل المسيح على الأرض، وهى راعية الإيمان والرقيب عليه، فلا إيمان من دون رعايتها ورقابتها ووساطتها، حتى أن فتنة كبرى قد ثارت عندما نادى "دوناتيس" أسقف قرطاجنة فى القرن الرابع الميلادى بضرورة التيقن من صلاح القساوسة وحسن سيرهم كشرط لسلطان الكنيسة على الإيمان، حيث أكدت العقيدة الرسمية على إستمرار تسلط القساوسة بغض النظر عن صلاحهم أو فسادهم الشخصى، لأن سلطتهم ترجع الى الكنيسة نفسها، التى لا يسقطها فساد القائمين عليها! فكيف يكون المسيحى حرا وإيمانه رهين بإرادة ووساطة بشر آخرين مطعون فى إيمانهم.

وأما الإسلام، فيقدم للإنسان صورة بالغة الحيوية، عبر صورة بالغة السمو لـ "الله الواحد الأحد" الذى ليس كمثله شىء فى الأرض أو فى السماء، وهى صورة تتفق ونضج العقل البشرى، كما تتفق وكونه هو الدين الخاتم فى سلسلة الإسلام العام أو الحنيف.

فالمسلم حسب عقيدة التوحيد يعيش حيوية بالغة على هذه الأرض، فهو مولود بغير خطيئة أصلية تثقل كاهلة ما يجعله دوما حر الحركة، كما ان طريقه الى الخلاص من الشرور وإدراك النعيم الأخروى لا تسده عثرات، ولا تقف دونه موانع، وزاده على الطريق ليس سوى إيمانه الفردى/ الحر. ولذا فهو لا يحتاج الى وساطة من أحد فليس فى الإسلام كهنوت، ورجل الدين فى الإسلام ليس إلا فقيه فى الدين وداعية الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنه لا يملك أى سلطة على المسلم ولا يعدو رقيبا على إيمانه، فالعبادة حرة من أى طقوس جماعية، ولذا فالإرادة حرة من كل هيمنة سلطوية. والحساب النهائى يخص الله والمسلم وله ميزان عدل لا يخطىء، ربما أصاب فيه فينجو، وربما تعثر وعندها فأمره الى الله ورحمته التى تسبق عدله، فالله هنا هو واسطة المسلم الوحيدة الى ذاته العلية بميزان رحمته إن شاء طالما أن العبد أسلم وجهه الى ربه فلم يشرك به أحدا.

ويثمن الإسلام بشدة فكرة الحرية الإنسانية، فلا يكتفى باعتبارها شرطا أصليا لإكتساب الإسلام، بل يدفع المسلم الى بلوغ ذروتها بغير طريق، وعلى أكثر من مستوى حسب الطاقة والجهد الإنسانى. فالفقيه مدعو الى الإجتهاد وله الأجر حتى لو أخطأ، ولكن الأجر يتضاعف فيما لو أصاب ليكون فى ذلك دافعا للإستزادة من المعرفة. والمسلم الخطاء التواب محبوب من الله مفضل عنده، لأن فى توبته شعورعميق بألم الإثم الذى إرتكبه رغم حلاوته فى نفسه ورغبته العميقة فيه، وهو إذ يتوب عنه ويقلع حبا فى الله وخشية له، فأنه يضع حبه لله قبل حبه لذاته مع ما فى ذلك من ألم يعانيه، وهو ما يدركه الله بلا شك فيحب العبد ويرحمه مهما تكرر خطئه، تقديرا للألم الإنسانى النبيل. فرحمة الله بالإنسان، كما تصوغها ذاته العلية، تفوق رحمة بالأم بوليدها. وتلك هى العلاقة البديعة التى يصوغها الإسلام بين الإله المتسامى، والإنسان العاقل اذ تدمج العقل بالحرية والرحمة فى مزيج رائق شفاف يتجاوز التجسيد والتشبيه، كما يتجاوز الجبر والعدمية.

وهنا ندعى بأن النموذج العقيدى التوحيدى يؤسس لحداثة عربية متميزة تلتقى مع مخرجات عديدة للحداثة الغربية وإن اختلف مصدر الإلهام لدى كلتيهما، غير أن التجربة التاريخية طالما إستلهمت هذا النموذج فى إتجاهين مختلفين، لايزالان يتصارعان على الثقافة العربية المعاصرة؛

الإتجاة الأول سلبى، يؤسس للتيار السلفى، ورؤاه الأكثر تقليدية على المستوى الوجودى، وأكثر ماضوية على المستوى التاريخى، وهو الإتجاه الذى يمثل فى نهاية المطاف وعبر عمليات تحريف متتالية ومتدرجة، المحفز لعنف التيار الإنقلابى ضد الواقع التاريخى العربى على أصعدة الدولة الوطنية، والثقافة القومية، والعلاقة مع الغرب.

أما الإتجاه الثانى فإيجابى، يؤسس للتيار العقلانى ورؤاه الأكثر حداثة وتقدما وإنفتاحا على المستويات الثلاث، ومن ثم الأقدر على إلهام عقلانية عربية إسلامية تقود التطور الحضارى العربى، وتكرس للتعايش مع الغرب.

وفى هذا الفصل سريعا عند الإسلام الإنقلابى على مستويات الرؤية الجذرية هذه، والنزعة التصادمية تلك، أما الإسلام العقلانى فموضوع الفصل الثانى.